

التعدد والتسامح والاعتراف في فكر رضوان السيد

د. محمد الشيخ

كلية الآداب جامعة بن امسيك/الدار البيضاء

تقديم

ليسمح لي الأستاذ رضوان السيد، بداية، أن أستعير عنوان إحدى مقالاته: "التعدد والتسامح والاعتراف: نظرة في الثوابت والفهم والتجربة التاريخية" لأتخذ منه عنوانا لمداخلتي هذه التي تحمل من العنوان: "التعدد والتسامح والاعتراف: في فكر رضوان السيد". ولا غرابة أن يجود علينا مفكرنا حتى بعناوين مداخلتنا هو الذي ما فتئ يجود على الثقافة العربية المعاصرة بكتابات وترجمات قل أن تجد لها نظيرا في ما يكتب اليوم. وبعد هذا وذاك: ألم يقل القدماء إن الوجود ينفع بالجوّد؟ فإدام الإنسان موجودا، فإنه يحسن به أن يجود. ولعل الرجل كان دائم التمثل بهذا المبدأ، فكان موصول الجود.

وبعد، ماذا أقصد بالعبرة "فكر رضوان السيد"؟

عادة ما يفضل رضوان السيد التعبير عن أفكاره بصيغة السلب، وذلك بوصفه فكر "المراجعة النقدية". وعادة ما يصنف نفسه ضمن زمرة "المراجعين النقديين". ففكره، كما يرتضي هو أن يقدمه، عبارة عن مراجعة نقدية متصلة للمفاهيم والتصورات التي يعج بها الفكر الإسلامي: قديمه وحديثه ومعاصره.

1. رضوان السيد، التعدد والتسامح والاعتراف: نظرة في الثوابت والفهم والتجربة التاريخية، مجلة التسامح،

على أن ما يهمني، في هذه المداخلة، إنما هو المراجعة النقدية التي يجريها رضوان السيد على المفاهيم والتصورات التي تتعلق، بداية، بالتعدد وضديده الأوحدية، وتثنية، بالتسامح وضده التشدد، وتثليثا، بالاعتراف ونقيضه صراع الجهالات.

أولا: التعدد والأوحدية

ينتهي معتر الخطيب مقالته التكريمي في الملف الذي أعده مركز القاهرة لحقوق الإنسان عام 2008 احتفاء بفكر الأستاذ ونشره بدوريته "رواق عربي" العدد 49-50 تحت عنوان: "حول الأصالة والمعاصرة في فكر رضوان السيد" بإيضاة إلى حادثة وقعت للأستاذ السيد في لبنان بداية الثمانينيات، من القرن الذي ودعناه، حين طلب إليه أحد الأساتذة المشاركة في ندوة عن "الثقافة الوطنية"، فأجابه: "لا أعرف ما معنى تلك الثقافة!" وحين ظنه الطالب جاها! ثار عليه السيد وقال: "أتريدني أن أترك ثقافة الأمة العريقة التي تعلمتها في بيروت ومصر وألمانيا طوال العشرين عاما، لأخوض في زواريب الحرب التي ضربت أول ما ضربت قريتنا؟"¹.

هو ذا الرجل، وهذا فكره. وحدوي لكن من غير استكراه، وتعددي على أن يكون التعدد من دون انقسام، وداع إلى العيش المشترك شريطة أن يتم بلا تمييز.

وما ليس بفكر الرجل، ولا منه، أن يكون فكره فكر "أوحدية"؛ إذ عادة ما يتحدث رضوان السيد عن "التعددية" تلقاء "الأوحدية". وهي أوحدية، إن تؤملت، وجدت أنها تتعلق بمجالات ثلاثة: السياسة والمجتمع والثقافة. فليس الرجل بمؤمن بالأوحدية السياسية، فضلا عن أن يكون داعية إلى الأوحدية المجتمعية، ناهيك عن أن يكون معتقدا في الأوحدية الثقافية. إنما هو، بالبدل من ذلك، يكره الأوحدية السياسية ويدعو إلى تعددية سياسية، وتمج أذنه الأوحدية المجتمعية وينادي بتعددية مجتمعية، ويرفض الأوحدية الثقافية وينشد التعددية الثقافية.

1. معتر الخطيب، حول الأصالة والمعاصرة في فكر رضوان السيد، مجلة رواق عربي، العدد 49-50، السنة

والحال أنه تتوجه مراجعة رضوان السيد النقدية إلى الأوحدية كائنة ما كانت وتجلت أين تجلت. ويعين هو خصما فكريا وإيديولوجيا وسياسيا يواجهه بالأولى والأحرى والأحق: "اندماجية الفكر القومي القاسية" التي قد تكون مسئولة، في نظره، على الانقسامات الطائفية والإثنية، و"الإيديولوجيا الاندماجية" وصلتها الممكنة بالأنظمة التوتاليتارية، و"الفكر القومي العربي" واحتمال ضربه التعددية السياسية.

ثم إنه ليواجه خصما ثانيا، الإحيائية، التي تنتهي، مهما هي احتكمت إلى منطق الواقع، إلى "رؤية غير متناسقة ومقنعة للعيش الوطني والتعددية الثقافية والسياسية"¹. وحتى إن هي قبلت بالتعدد السياسي، فإن أخشى ما تخشاه، خشية المارد من الماء المبارك، هو التعددية الثقافية؛ لأنها قد تؤدي، وهذا أمر قد يشهد عليه الواقع المرير، إلى تفكيك المجتمع تمهيدا لخلق دويلات².

وراء رفض التعددية والقول بالأحادية ما يسمه رضوان السيد بوسم "العقدية": إنها هؤلاء "العقديون"، أكانوا "عقديين قوميين" أم "عقديين إحيائيين"، شأنهم القول بالأحادية الاندماجية القول العقدي، ودأبهم الخوف من كل تعدد، وديدنهم التوجس من أي اختلاف صغر أم كبر وهان أم اشتد. والحال أن هذه العقدية الأوحدية تتعارض التعارض الصارخ مع التجربة التاريخية التي تشهد على أن الأمة ما كانت أبدا أمة اندماجية³، وإنما كانت، على وجه الدهر، أمة تعددية بتعدد سياسي وديني وإثني وثقافي: "المجتمعات الإسلامية الوسيطة كانت تعي اختلافاتها، وتحقق وحدتها في شمولية الأمة، وتعددية التنظيمات الاجتماعية والثقافية تحت سقفها"⁴. كلا، ما كانت الأمة سوية أوحدية، وإنما هوية تعددية كانت هي: "ولا مرة كانوا [كان] العرب على دين واحد، ولا مرة كان الإسلام منفردا ببلد، ثم ولا مرة كانوا

1. رضوان السيد، المواطنة والقومية والتعددية الثقافية في الفكر العربي المعاصر، مجلة التسامح، العدد 15، ص 69.

2. المرجع نفسه، ص 80.

3. المصدر نفسه.

4. المصدر نفسه، ص 62.

[كان] العرب أكثرية المسلمين، فعشنا في مجتمعات متعددة. مجتمعاتنا التاريخية ظلت حتى [في زمن] الحروب الصليبية [تعددية]¹."

ثانيا: التسامح والتشدد

لئن ما كان فكر رضوان السيد فكر أوحدية، فإنه ما كان، فضلا عن هذا، فكر هوية يشتد على غيره. وإذا كان الرجل قد دأب الدأب على أن يصف فكره بأنه "مراجعة نقدية"، فإنه، بالأحرى والأولى والأجدر، فكر "المراجعة النقدية للذات". على أن صاحب هذا الفكر يميل، في الغالب، إلى التعبير عن فكره في هذه الأمور، على جهة السلب، بما ليس هو. وما ليس هو أن يكون فكره "فكر ذاتية"، أو "فكر خصوصية"، أو "فكر هوية". وما كان بالأحرى "فكر الذاتية والهوية"²، ولا "فكر الهوية والخصوصية". ولئن هو كان خصمه، بالأولى، في مسألة التعدد والواحدية هو العقيدة القومية، وبالتبع العقيدة الإحيائية، فإن هاهنا، في مقام التساهل والتشدد، يتبادل الخصمان الأدوار، فيصير الخصم الأول هو: "فكر الهوية الإسلامية المعاصرة"³، ثم بعد ذلك، وبعده فقط، يأتي في الدرجة الثانية من الخصومة فكر التقدمية المعادي للعلو المعاداة العقيدة. وهو عادة ما يسمى أهل ذاك الفكر المأخوذ بالهوية إنتخاذاً، سواء أكانوا "إحيائيين" أم "قوميين"، باسم "مفكري الهوية"⁴.

والحال أنه يضفي على هذه "الهوية" المأخذ بها فكر الهوية المرید صونها أو صافا عدة: هي "الهوية الصافية"، وهي "الهوية الطهورية"، وهي "الهوية المنغلقة"، وهي "الهوية العقدية"، وهي "الهوية المتعمقة"، وهي "الهوية الصلبة"، فضلا عن دمج بين هذه الأوصاف مثنى وثلاثى.

1. رضوان السيد، برنامج "مسارات"، الحلقة الثانية، موقع الجزيرة نت، (حلقة 17-9-2005).

2. رضوان السيد، مجلة التسامح، العدد 11، ص 11.

3. رضوان السيد، الهوية الثقافية بين الثوابت والمتغيرات، التسامح، العدد 13، ص 30-31-32.

4. انظر مثلاً: رضوان السيد، الإصلاح.. ذكرياته وإخفاقاته، موقع: الملتقى الفكري للإبداع، 6 نونبر

2005.

وفكر الهوية هذا الداعي إلى "صون الهوية الإسلامية الطهورية" أثر من آثار ما يسميه رضوان السيد: "الخوف على الهوية"¹ من الهجوم الجارف للغرب والحدائث التي يمثلها. وهو أثر ثان لما يسميه تارة أخرى: "الضيق" - ذاك الذي يجعل "الذات المسلمة" هي الذات "الضائقة ذرعا بواقعها ومتطلباته الموضوعية"².

ومنشأ فكر الهوية هذا بالأول الدعوة الإحيائية وبالثاني الدعوة القومية. من جهة أولى، فكر الهوية ابن ما بين الحريين. فما كان هم الإصلاحية، دعوة محمد عبده وزملائه وتلامذته، مسألة الهوية، وإنما كانت مسألتهم مسألة التقدم: "كيف نتقدم بحسبان أن ذلك هو ما ينقصنا أو ما يحول بيننا وبين أن نكون أندادا للغرب نستعصي على هيمنته واستعمارهم؟"، بينما الإحيائية الإسلامية هي التي طرحت مسألة الهوية الطرح الأول: "كيف نحافظ على الهوية؟"³، فلتن كانت إشكالية أولئك هي إشكالية التقدم وكيف يتحقق، فإن إشكالية هؤلاء صارت هي صون الهوية عن طريق التجدد الذاتي: صيانة الاستقلالية الذاتية وحفظ الهوية. ولهذا يصف رضوان السيد الفكر الإصلاحي بأنه فكر "انتماء واستمرارية"، بينما يسم الفكر الإحيائي بكونه "فكر هوية وخصوصية وقطعية"⁴. وما زال هو يقرن بين الفكر الإحيائي وفكر الهوية حتى صار إلى تسميته "فكر الهوية الإحيائي" القائم على فكرة: "صون الخصوصية والذاتية والهوية الطهورية"⁵. "ومهما هي تعددت أوجه فكر الهوية هذا، فإنه، لاسيما في وجهه الإحيائي،" يمثل وعيا بالخصوصية، وإحساسا بالغربة في هذا العالم، واعتقادا بوجود مؤامرة على الإسلام"⁶.

-
1. انظر مثلاً: رضوان السيد، الدين والدنيا والدين والدولة في الإسلام المعاصر، التسامح، العدد 19.
 2. انظر مثلاً: رضوان السيد، صورة الآخر... بين المعرفة والوعي والاهتمام، موقع: الملتقى الفكري للإبداع.
 3. انظر مثلاً: رضوان السيد: الإصلاح... ذكرياته وإخفاقاته، م، س.
 4. رضوان السيد، من الإصلاح إلى الإحياء... مصائر موارث التفكير النهضوي الإسلامي، ضمن موقع: الملتقى الفكري للإبداع، 05-02-2005.
 5. رضوان السيد، حقوق الإنسان وتجديد الخطاب الديني: كيف يستفيد العالم العربي من تجارب العالم الإسلامي غير العربي؟ ندوة الإسكندرية 18-20 أبريل 2005.
 6. المصدر نفسه.

والذي عنده، أن فكر الهوية هذا، لاسيما عند من يسميهم "الإحيائيين" أو "دعاة الصحوة"، لا تسامح فيه. فإنه إذ يذكر هذه الصحوة يؤكد تأكيدا في ضميمة دالة بأشد دلالة تكون: "الصحوة الأصولية والهادئة لكن المصممة وليس المسالمة؛ إذ لا مسالمة ولا تسامح لدى العقائديين¹." والبديل الذي يطرحه لفكر الهوية المتشنج هذا تصور للهوية منفتح بأقصى ما يكون الانفتاح: "الهوية المزدهرة هي التي تحيا وتقوى بالعمل في العالم ومعه وليس في مواجهته²." فإن هي فعلت وجدت أنه: "لا خشية على الهوية والانتماء من الانفتاح؛ لأن الهوية المنفتحة والمتجددة هي الباقية".

ويقابل "التسامح" عنده "التشدد"، فيتحدث عن: تحليل وفهم ظواهر التشدد الديني إزاء الأمم الأخرى وثقافتها، وإزاء الجماعات الدينية. وعنده أن هناك ثلاثة توجهات في فهم ظاهرة "التشدد" هذه التي تلازم فكر الهوية: أولها: التوجه التبريري الذي يسوغ التشدد بداعية أنه رد فعل لدرء عدوان فائت وآني وآتي. وثانيها: التوجه الماركسي والقومي الذي يعلل التشدد بأمرين: مركزية النظام العالمي الغربي، وغياب حرية التعبير في البلاد العربية. والتوجه الثالث الذي ينسبه إلى "مجموعة من المراجعين النقديين"، وما أحسبني أعده إلا منهم على الأرجح، يعتبر التشدد مبنيا على تغول فكر الهوية، وهذا عائد إلى تحويل المشكلات السياسية والاقتصادية إلى عاذرة وماحلة ثقافية (دعوى صراع الحضارات الإسقاطية).

ويقوم رضوان السيد، على عادته في أغلب المفاهيم التي يتناولها بالدرس، جنيا لوجيا لمفهوم "التسامح". والرجل مغرى بمبحث تاريخ المفاهيم، على نحو ما أنشأه العلامة الألماني راينهاردت كوزليك، بأشد انغراء يكون، فيرى أنه كان لفظا النهضويين للتعبير عن الحاجة إلى "التعايش مع الآخر المختلف عقيدة أو قومية أو ثقافة" هما "التحمل" و"التساهل". وأن اللفظ السائر اليوم "التسامح" بمعنى "تقبل الاختلاف"، وعلى عكس ما قد يظن، إنما هو ابن الربع الأول من القرن العشرين. بهذا قضى البحث في تاريخ تبيئة المفاهيم داخل الثقافة العربية المعاصرة.

1. رضوان السيد، عام مخاض الصحوة الإسلامية لدخول عالم العصر، الملتقى الفكري للإبداع، 14 يناير

2002.

2. رضوان السيد، الإصلاح والمصالحة: سؤال النهضة وسؤال الأولويات، التسامح، العدد 10.

والذي عنده، أنه سادت، على الأرجح، رؤى ثلاث للتسامح، أو الاعتراف بالاختلاف، هي: "الرؤية المسيحية" التي نهضت، من حيث المبدأ، على مفهوم "المحبة"، لكن، تاريخياً، ضاقت المحبة حتى ما شملت إلا أهل الملة، بل حتى عجزت هي عن أن تسع المنشقين عن الكنيسة من أهل الملة المخالفين في النحلة. و"الرؤية الإنسانية" (أوروبا، ق 17 و 18) التي رامت تحقيق سلم اجتماعي على حساب إقصاء قسري للدين أو تقييد له، وذلك إما استناداً إلى تجربة مريرة (الحروب الدينية) أو إلى مبدأ فلسفي (اللاأدرية). والحال أن هذا التصور هو الذي استلهمه بعض النهضويين العرب، من أمثال فرح أنطون، الذين اختاروا له اسم "التساهل"، فرسم "التسامح"؛ مما أثار حفيظة إصلاحيين النهضة. و"الرؤية القرآنية" التي تعتبر الاختلاف حالة طبيعية، وتدبره إما بوفق منهج التعارف أو بوفق منهج التأخي أو حتى، إن ما كان هذان، البر إلى الأغيار وترك الحرية لهم في ممارسة الاختلاف في المجال الديني.

ثالثاً: الاعتراف وصراع الجهالات

يقول رضوان السيد: "الصحوية في أكثرها هادئة، لكنها ليست بشوشة ولا تقصد إلى التعارف"¹. هي بهذا تناقض جوهر الرؤية القرآنية التي تقر بالاختلاف بين بني البشر وتحل مشكلاته بأحد طريقتين متفاضلين، ثانيهما يفضل الأول، التعارف والتأخي. على أن هذين المبدأين ليسا يعنيان أبداً إنكار الاختلاف والذوبان في هوية السوى أو الوقوع في ضرب من النسبية المطلقة المعممة: "ليس من حق أحد أن يطلب منا التخلي عن ثوابتنا أو حتى القول بنسبية الحقيقة. بل المطلوب منا تطبيق منهج "التعارف" القرآني... والتعارف هو المعرفة المتبادلة. وهو الاعتراف المتبادل بالحق في الاختلاف. وهذا الحق لا يمكن أن ينبني إلا على المعرفة والتعارف وأن نعيش عصرنا وعالمنا".

يضاد مبدأ "الاعتراف"، أو "التعارف"، هذا الذي يؤصل له رضوان السيد بما يسميه "الرؤية القرآنية" ما يعتبره، إسوة بغيره ممن تقدمه إلى ابتداع هذا الاصطلاح،

1. رضوان السيد، عام مخاض الصحوة الإسلامية لدخول عالم العصر، م، س.

مبدأ "صراع الجهالات" القائم على انعدام وجود رؤية للعالم، وعلى التشاؤمية والكتابة التي تطبع الرؤية السائدة للعالم، وبالتالي على الرغبة في إعلان الحرب على العالم (نظرية الفسطين الشهيرة نموذجاً). وعندهن فإنه، وعلى الضد من هذه الرؤية المالنخولية السويدائية، المطلب هو: "الإسلام المفتوح ذو الإطار الواسع [من حيث] هو إسلام العلاقة الطبيعية مع العالم، إسلام المسؤولية والمشاركة والتأثر والتأثير والعيش الواحد وبناء المستقبل المشترك". ذاك الإسلام الذي من شأنه أن يتجاوز المقاتلة والمهادنة وينشد الحياة المشتركة.

على سبيل الختم

بقي أن أقول كلمة نقدية عنت لي وأنا أستمع بها أقرؤه للأستاذ رضوان السيد وأفيد منه غاية الإفادة. وهذا لا يقدر في شيء في فكره، بل يعلي من شأنه. فقد علمنا المفكر الألماني مارتن هايدغر أنه كلما أشكلت مواضع في فكر مفكر دلت على ثراء هذا الفكر، وأن الفكر الذي لا إشكال فيه فكر ميت. وهي أنه أشكل عليّ أمران في فكر الرجل تبدياً لي محيرين بأشد تحير يكون:

أولهما: ذهاب الرجل، في بعض ما كتبه، وهو كثير، إلى أهمية الاحتكام إلى التجربة التاريخية، بما نم عنده عن حس تاريخي رفيع. لكن في الوقت ذاته لطالما مال هو إلى القول: "أرى أننا نعيش في عصر جديد، وموقف جديد، ووجوه وعي جديدة؛ لا تكاد [تلاحظ هذه "اللاتكاد" المترددة] تفيد فيها الخبرة التاريخية إيجابية كانت أم سلبية¹". ها هنا نتوقف لكي نسأل: ما دور التجربة التاريخية في فكر الأستاذ رضوان السيد؟ أهى تجربة حدية؛ أي لبيان حدود حضور المفاهيم التي يحللها؟ أم هي ضرب من التأصيل بالتاريخ الذي من شأنه أن يوازي التأصيل بالنص؟ وهذا يسلمنا إلى الملاحظة الثانية:

ثانيهما: عادة ما انتقد الرجل الفكر التأصيلي الذي ما يفتأ يعود إلى النصوص التأسيسية الأصلية. فهو الذي عادة ما انتقد ما يسميه "عملية التأصيل"؛ بمعنى

1. رضوان السيد، المسلمون والمسيحيون في ظل ثقافة حوار الحضارات، التسامح، العدد 6، السنة 2،

2004. ص 271.

إعادة الأمور إلى الأصلين: القرآن والسنة، مع ضرب الصفح عن التاريخ التشريعي والاجتهادي، والقفز على التجارب الهائلة التي راكمتها الأمة الإسلامية منذ أن كانت. تلقاء ذلك يؤكد، في غير ما مرة، على أنه: "لا يمكن العودة إلى القرآن بشكل مباشر الآن متجاهلين التجربة التاريخية لأمتنا من جهة، أو بالقفز على الطرائق التي وضعت قديماً وحديثاً لمقاربة هذا النص من النواحي الفيلولوجية واللغوية والبلاغية"، حتى أنه يذهب إلى أن مسألة التأصيل هي العائق الأساسي أمام تطور فكر الإسلاميين¹. لكن ألا يكاد هذا القول ينطبق على عودته إلى القرآن من أجل تأصيل فكرة "التسامح" بوفق ما سماه: "الرؤية القرآنية"؟ هاهنا أمران: إما جواز العودة إلى النص بالنسبة إلى الجميع، أو الوعي بأن المسألة حديثة، وبالتالي لا مسوغ للعودة إلى النص أية عودة كانت؟ أم أن الأستاذ يخشى أنه إن نحن تركنا النص، والتراث بعامة، للإحيائيين استخدموه أنها بأسوأ استخدام يكون؟

1. رضوان السيد، الفكر الإسلامي المعاصر وحقوق الإنسان، دفا تر مؤسسة عبد الرحيم بو عبيد، العدد 6، يونيو 1997، ص 26.